

## سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝ ﴾

مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ : محضاً له الطاعة والعبادة .

زُلْفَى : تقريباً .

إن القرآن هو تبيين إلهي للحقيقة . وإن أسلوبه الحكيم ومضامينه القوية الناضجة على نحو غير عادي ؛ برهان داخلي على أنه في الواقع من عند الله ؛ إذ لا أحد من البشر يقدر على أن يأتي بكلام غير عادي من هذا الطراز ! ومعنى إخلاص الدين لله : إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى إلهاً .. "أي فاعبد الله وحده ، مخلصاً له في عبادتك" (١) .

وعاطفة العبادة كامنة في فطرة كل إنسان بطريقة غامضة عجيبة . وهي تعني : أن تتصور إلهاً من الكبرياء والجلال بحيث يتولد في نفسك إحساس بالروعة أو الرهبة تجاهه ، والإله الذي يشعر المرء نحوه بهذا الإحساس ، يعتبره بالتالي أقدم ما يكون ، فيخضع له كل كيانه ، ويبالغ أمامه في التمسك بمراسم التوقير والاحترام . وهو يخافه أشد الخوف ، كما يحبه أشد الحب ، وبذكره يلتذ روحه ، وتقر عيناه ، وإنه يعود هو

السند الأكبر له في هذه الحياة.

وذلك ما يسمى العبادة. وهذه العبادة هي حق الله الواحد وحده فقط، ولكن الإنسان طالما يشرك غير الله في العبادة والتقديس مع إيمانه بالله، ويمارس ألوان الطقوس والأفعال العبادية لغير الله، وهذا هو ضلال الإنسان الأصلي، والحقيقة أن العبادة شأنها شأن الألوهية لا تقبل التقسيم أو التجزئة على الإطلاق!

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۚ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له عن اتخاذ الولد.

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ: يلفه على النهار لف اللباس على اللباس.

الإنسان مدفوع بفطرته إلى أن يهفو نحو الله، ويتوجه إليه بالعبادة والتعظيم. والشيطان يحاول دوماً أن يصرف هذه العاطفة الفطرية عن الله نحو اتجاه آخر، وتحقيقاً لهذا الغرض فإنه يلقي في أذهان الناس أن جناب الله أرفع وأعلى من أن ترتقوا إليه مباشرة، ولذا فينبغي أن تحاولوا الوصول إليه عبر التوسل بالصالحين، كما يغرس في أذهانهم العقيدة القائلة بأن الله أولاداً تماماً مثلما يكون للبشر، وأن أيسر طريق لنيل رضا الله هو أن تعملوا على إرضاء أولاده، وإن عبادة المادة في العصر الحديث - التي صرفت عاطفة العبادة المودعة في الفطرة الإنسانية عن الخالق نحو المخلوق - لا تعود أن تكون صورة مشوهة لتلك العقيدة البالية ذاتها.

وكل المعتقدات والطقوس من هذا القبيل تصغير لله عز وجل، فالله الذي يسير

النظام الشمسي الهائل ، والذي يدبر أمر هذا الكون الفسيح ، هو بالطبع أجل وأسمى من أن تروج عنده شفاعة شافعٍ أو يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !!

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً  
أَزْوَاجًا تَحُلُّكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ  
رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾

وَأَنْزَلَ لَكُمْ : أنشأ وأحدث لأجلكم .

ظلماتٍ ثلاثٍ : ظلمة البطن والرحم والمشيمة .

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ : فكيف تصرفون عن عبادته .

ظهر إلى الوجود أول الأمر إنسان واحد ، ثم استخرج منه زوجة على هيئة مطابقة له تماماً، وهكذا تسلسل الجنس البشري عن طريق رجل وامرأة بدائيين ، ثم أنشأ الله أشياء لا تحصى لشتى مصالح الإنسان ومختلف حاجاته، وقد ظلت الإبل والبقر والضأن والمعز (وهي بذكورها وإناثها ثمانية أنواع) ظلت في أولى مراحل الحضارة المورد الرئيسي لمعيشة الإنسان، فلما انتقلت الحضارة إلى طورٍ جديدٍ بدأ الإنسان باستعمال أشياء أخرى لا حصر لها ، صنعها الله منذ بدء الخليقة ليتمكن الإنسان من الانتفاع بها واستخدامها لمصالحه ، فكما أن الحيوانات الداجنة مسخرة بطبعها لخدمة الإنسان . فكذلك سخرت له أنواع الغازات والمعادن هي الأخرى ، وإلا لما استطاع الإنسان أن يستعملها بأي وجهٍ من الوجوه ، والثمانية أصنافٍ من الأنعام المشار إليها آنفاً ، إنما ذكرت على سبيل المثال دون الحصر ..

والظلمات الثلاثة التي ذكرتها الآية هنا فيما يتصل بخلق الإنسان هي : ظلمة جدار البطن ، ثم تليها ظلمة جدار الرحم ، ثم تليها ظلمة الأغشية الخارجية المحيطة بالجنين

من كل جانب .

وهذا النظام معقد وعظيم إلى حد مدهل لا يقدر معه على إيجاده أحد سوى خالق الكون ، إذن ، فمن ذا الذي يستحق سواه أن يُرفع إلى درجة الإله المعبود!!

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٥٧ ﴾

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ: لا تحمل نفس آثمة .

إن الإيمان بالله والشكر له من مقتضيات العقل الإنساني نفسه ؛ لأن ذلك اعتراف بالحقيقة الواقعة ، وليس من شك في أن الاعتراف بالحقيقة الواقعة هو أكبر المطالب العقلية على الإطلاق.

والآخرة هي ظهور للعدل الكامل . ومستحيل أن يبقى هذا الوضع الناقص -الذي نراه يسود عالمنا الراهن - مستمراً في عالم العدل الكامل ذاك ، إذ يقتضي العدل أن يظهر كل شخص كما هو في واقع الأمر ، وأن ينال بالتالي جزاءً وفاقاً لما يستحقه في الحقيقة ، وهذا ما لا يحدث في العالم الراهن ، وستأتي الآخرة لتصلح هذا العيب ، وتجعل من هذه الدنيا الناقصة دنيا كاملة إلى أقصى حدود الكمال !!

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ٥٨ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ٥٩ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ٦٠ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٦١ إِنَّمَا

## يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٠﴾

مُنِيبًا إِلَيْهِ : راجعاً إليه ، مستغيثاً به .

خَوَّلَهُ نِعْمَةً : أعطاه نعمة عظيمة تفضلاً وإحساناً .

أَنْدَادًا : أمثالاً يعبدونها من دون الله .

هُوَ قَانِتٌ : مطيع خاضع عابد لله تعالى .

آثَاءَ اللَّيْلِ : ساعاته .

ما من امرئ إلا تمر عليه لمحات يجد فيها نفسه عاجزاً كل العجز ، والأشياء التي كانت موضع ثقته واعتماده تحذله هي الأخرى في تلك الساعة الحرجة ، وعندها ينسى المرء كل شيء ويأخذ يتضرع إلى الله في خشوع واستسلام ، وهكذا فكل امرئ يدرك في لحظات الشدة أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، ولكن الشدة لا تكاد تزول حتى يعود هو سيرته الأولى ! ويزداد الإنسان كفراً وطغياناً ؛ إذ هو يأخذ ينسب نجاته إلى أشياء أخرى غير الله ، فبعضهم يعدها نتيجة الأسباب ، وبعضهم الآخر يعتبرها معجزة الآلهة المفترضة ، ولو أن المرء لزم الصمت بعد اقترافه خطأً أو خطيئةً ما ، لانهصر ضلاله في شخصه وحده ، ولكنه حين يأخذ في تبرير خطئه ويجعله عين الصواب بتأويله الكاذب ، يتعدى ضلاله إلى غيره ، فيعود ضالاً ومضلاً في الوقت نفسه !

من الناس مَنْ لا يقلقه سوى الهموم المادية وحدها ، وهناك إنسان آخر يهيمه ويقلقه ذكر الله . وهذا الإنسان الأخير هو الإنسان الرباني حقاً . إن إقراره بالله لا يكون نتاج الظروف والأحوال ، وإنما يكون اكتشافه الشعوري الواعي ؛ حيث إنه يظفر بالله كموجود أعلى ترتبط كل آماله ومخاوفه بذاته وحدها . وهمومه الداخلية تجعله يبتعد

عن فراشه حتى في ساعات الليل ، وخلوته لا تكون خلوة لاهية غافلة ، وإنما تصبح خلوة عامرة بذكر الله سبحانه وتعالى .

العالم هو الذي يمتلئ كيانه النفسي وجلًا واضطراباً بذكر الله ، أما غير العالم فهو الذي لا تهز نفسيته إلا الأحوال المادية ، والذي إنما يستيقظ لبرهة من الزمان على أثر الصدمات المادية ، ثم يعود مرة أخرى إلى سبات غفلته الطويل العميق !

﴿ قُلْ يَعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٥٥ ﴾  
بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية لما يعطي أو بتوسعة .

حين يحصل المرء معرفة عميقة بالله ، يترتب على ذلك بالضرورة أن يمتلئ كيانه كله خوفاً وخشية من الله ؛ فإن إدراك عظمة الله وجلاله يجعله خاشعاً ذليلاً بين يديه تعالى ، وتعود حياته العملية تسير وفق الأحكام الإلهية لا تحيد عنها قيد أنملة ، ويصير جاداً مخلصاً في هذا الشأن لدرجة يرضى معها بالتخلي عن كل شيء لأجل الله ولا يرضى بالعكس أبداً !

إن بناء الحياة على أساس من الإيمان امتحان جد عسير بالنسبة إلى المرء ، وإنما ينجح في هذا الامتحان أولئك وحدهم الذين يعتبرون الإيمان كنزاً ثميناً غالياً بحيث يستعدون من أجله للصبر على الحرمان من أي شيء آخر ، والحياة الإيمانية بمعناها العملي اسم آخر للحياة الصابرة ، والذين يرضون بدفع ثمن الصبر حتى يكونوا مؤمنين ، هم الذين سيعطون أوفر نصيب من الإنعامات الإلهية العليا !

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ٥٦ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ٥٧ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٨ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ ٥٩ ﴾

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ قُلْ إِنَّ الْخُسِرَانَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ هُمْ مَنْ فَوْقَهُمْ ظُلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلٌّ ۚ ذَلِكَ تَحَوُّفٌ مِنَ اللَّهِ بِهِ عِبَادُهُ يَعْبَادُ فَاتَّقُوا ۚ ﴿﴾  
 ظُلٌّ مِنَ النَّارِ : أطباق منها ، كثيرة متراكمة .

إن دعوة النبي يدور محورها الرئيسي حول أن يصير الناس كلهم عابدين لله الواحد وحده ، ويتركوا عبادة كل شيء سواه ، وإنما لا تكون بالنسبة إلى النبي مسألة قيادية بالمعنى المعروف ، وإنما تكون مسأله الذاتية ، ومن ثم فهو يكون أول القائمين بذلك . وبما أن النبي يكون على يقين من أن مصير الإنسان إلى الفلاح أو الخسران سيتقرر نهائياً في الآخرة ، لذا فهو يكرس حياته في سبيل الآخرة ، ويدعو الآخرين أيضاً إلى تكريس حياتهم في سبيلها ، ونوعية عمل النبي هذه تدلنا على نوعية عمل الداعي ، والداعي إلى الحق إنما هو الشخص الذي يصير الحق عنده بمثابة مسأله الذاتية ، والذي تكون دعوته تعبيراً تلقائياً عن قلقه الداخلي ، وليس ترديداً خارجياً محضاً لبعض الهتافات الفارغة كترديد مكبرات الصوت !

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۚ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿﴾

اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ : الأوثان والمعبودات الباطلة .

وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ : رجعوا إلى عبادته وحده .

المطلوب من المرء أن يثبت أنه يملك عقلاً يميز به الصحيح من الغلط ، ويتمكن

من رؤية الحقيقة بتمزيق حجاب الخداع والتمويه الشيطاني. والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة ، أولئك هم السعداء الذين سيفوقون إلى إدراك الصدق الإلهي. أما الذين يخفقون في إقامة الدليل على هذه البصيرة ، فليس لهم في هذا العالم من مصير سوى أن يظلوا متعلقين بغير أحسن الجوانب للقول ، ويُبعثوا بالتالي عند الله كعبدة الطاغوت !!

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۚ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلَفُ ۚ اللَّهُ الْمُبْعَادُ ۝٣٠﴾

حَقَّ عَلَيْهِ : وجب وثبت عليه .

لَهُمْ غُرَفٌ : منازل رفيعة عالية في الجنة .

كل إنسان محاط بعواقب أعماله ، حيث تحيط بصاحب الجنة أجواء الجنة العطرة ، وتحيط بصاحب النار أجواء النار اللافتحة المحرقة. ولو امتلك الناس بصرًا نفاذاً إلى الحقائق غير المرئية لرأوا صاحب الجنة يتمتع بنعيمها في هذه الدنيا، ولوجدوا صاحب الجحيم يصلي نارها في هذه الدنيا ذاتها .

والجنة هي الصورة المثالية الكاملة لدنيا الأحلام والأمان التي ينشدها المرء في الحياة الراهنة ، ولكنه لا يستطيع الحصول عليها ، وثمر هذه الجنة تقوى الله ، فالذين يبرهنون على خوف الله في الدنيا ، هم وحدهم الذين سينعمون بحياة الجنة الخالية من كل خوف !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ نُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا



لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٠﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ  
لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

فَسَلَكَهُ بَنَائِعَ : أدخله في عيون ومجار .

يَهِيْجُ : ييبس في أقصى غايته .

يَجْعَلُهُ حُطَامًا : يصيره فتاتا هشيما متكسرا .

فَوَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

إن الوقائع المادية التي نشهدها على الأرض كنظام المطر العجيب المدهش ،  
وخروج النبات الأخضر به ، وتهيئة أسباب أخرى لإنضاج الزرع بمختلف أنواعه  
وألوانه ، تنطوي هذه الوقائع على ما لا يحصى من النصائح المعنوية القيمة ، ولكن هذه  
النصائح لا يدركها إلا ذوو نفوس طُلعة تحب استكناه الأشياء وسبر أغوار الأمور .

لقد أنشأ الله العالم الخارجي بحيث صار كل شيء فيه علامة على الحقيقة العليا ،  
وأودع في الإنسان مواهب وقدرات تمكنه من قراءة تلك العلامات وفهم أسرارها .  
والذين يحافظون على مواهبهم الفطرية ، ويستخدمونها في تأمل أشياء الكون والوقوف  
على دقائق صنع الخالق جل وعلا ، فسوف تنفتح في صدورهم أبواب المعرفة ، وأما  
الذين لا يتمكنون من الاحتفاظ بمواهبهم الفطرية ، فإنهم سيظلون محرومين من  
الاعتبار والاتعاظ حتى في خضم العبر والعظات ، وإنهم سينظرون ولا يرون ،  
ويستمعون ولا يسمعون .

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ  
تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ

مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٠٠)

أَحْسَنَ الْحَدِيثِ : أبلغه وأصدقه وأوفاه (القرآن)

كِتَابًا مُتَشَابِهًا : في إعجازه وهدايته وخصائصه .

مَثَانِي : مكررا فيها الأحكام والمواعظ والقصص وغيرها .

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ : تضطرب وترتعد من قوارعه .

تَلِينُ جُلُودُهُمْ : تسكن وتطمئن لينة غير منقبضة .

لقد أعطى الله الإنسان أحسن كتاب في صورة القرآن الكريم ، وهو يمتاز بصفيتين خاصتين : إحداهما : كونه متشابهاً أي إنه كتاب خالٍ من التناقض كل الخلو ، حيث لا يتعارض بعض أجزائه مع بعضها الآخر . وميزة القرآن هذه تدل على أنه كتاب مبني على بيان الحقيقة ، ولو لم تكن بياناته هي الحقيقة بعينها ، لأدى ذلك حتماً إلى حدوث التضارب وانعدام التشابه بين مختلف أجزائه !

وأما الميزة الثانية للقرآن : فهي كونه " مثاني " ، أي إنه كتاب تُنَوَّلَت مضامينه بالإعادة والتكرار مرةً وأخرى بأساليب شتى . وميزة القرآن هذه تدل على كونه كتاب نصيحة ؛ إذ الناصح يبتغي دوماً أن يستقر كلامه في ذهن السامع . وهو يلجأ لهذا الغرض إلى تقديم كلامه بطرائق متنوعة ، وقد جاءت هذه الحكمة في القرآن الكريم في أرفع مستوياتها وأبهى صورها !

ومن خصوصيات الإنسان أنه إذا سمع نبأ مروعاً ، اقشعر جلده وسرت رعدة في أوصاله ، وتولد في كيانه نوع من اللينة الخاشعة ، وهكذا يكون حال الإنسان الجاد عند تلاوته لأي القرآن الكريم ، فقد بين القرآن حقائق الحياة الخطيرة بأسلوب قوي مؤثر للغاية ، ومن هنا فلو أن مخلوقاً كالإنسان قرأه قراءة فهم وتدبر ، لطرأت على جسمه

الكيفية الانفعالية التي ينبغي أن تعتربه عند استماعه إلى أي نبأ خطير بطبيعة الحال!

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۝ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّخَذَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَآذَقَهُمُ اللَّهُ الْحَزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِ الْعَذَابِ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾  
الحزبي : الذل والهوان .

إن المرء يحاول دوماً أن يقي وجهه من المؤثرات أو الإصابات ، ولكن عذاب يوم القيامة سيكون محيطاً بالمرء من كل جانب بحيث لن يسعه هناك أن يمنع أي جزء من أجزاء جسده من التعرض له ؛ فإنه سيقف يومئذ أمام عذاب لا يُقاوم ، كما لو أنه قد جعل من وجهه جنة يتقي بها منه ! وأكبر جريمة عند الله هي ألا يعترف المرء بالحق حين يتجلى أمامه ، وأمثال هؤلاء لن يفلتوا من بطش الله وعقابه على أية حال !!

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝ ﴾

عِوَج : اختلاف واختلال واضطراب .

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ : متنازعون شرسو الطباع .

سَلَمًا لِرَجُلٍ : خالصا له من الشركة والمنازعة .

جاءت مضامين القرآن الكريم في لغة معلومة لدى البشر ، وفي حدود ما يسعه

العلم البشري وتوسع له مداركهم ؛ وذلك لكي لا يصعب فهمها على أحد . وقد بين القرآن هنا، بلسان التمثيل ، أن مبدأ التوحيد أقرب إلى العقل والمنطق وأكثر تطابقاً مع الفطرة بالقياس إلى عقيدة الشرك ، حيث يدلنا الكون الخارجي على أن شئونه إنما يقوم بتصرفها إرادة واحدة فحسب .

ولو كانت هناك إرادات متعددة تتصرف في هذا الكون لاستحال أن يسير نظامه بهذا القدر من الدقة والانسجام ، ثم إن تكوين الإنسان النفسي جعل بحيث يميل بطبعه إلى وحدة الولاء ، وإنه لما ينافي التكوين الإنساني تمام المنافاة أن يلقى على عاتق امرئ ما مسئولية عدد من الولاءات المختلفة في آن واحد ، ويستطيع بالتالي أن يقوم حتى بحق أي واحد منها على النحو المطلوب .

إذن ، فكل الدلائل والقرائن تشير إلى أنه ليس ثمة إله سوى إله واحد هو وحده خالق الإنسان ومعبوده بحق ، وهذه الحقيقة يتم إعلانها في العالم الراهن على لسان بشرٍ مثلنا ، أما في يوم القيامة فسيعلنها خالق الكون نفسه على رؤوس الخلائق ، وعندها لن يستطيع أحد أن يقابل هذا الأمر بغير الإذعان والاعتراف والتسليم !!

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ ﴾ (١٠) وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ ﴿١١﴾ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۚ ﴿١٢﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ ﴾ (١٣)

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ : مأوى ومقام لهم .

كل نظرية لا تطابق الحقيقة فهي كذب وافتراء على الله . وقد كان الناس ولا يزالون

يعيشون في كل عصرٍ على أساسٍ من هذا الكذب والافتراء ، وإن داعي الله إنما ينهض لكي يقيم الدليل القاطع والحجة الدامغة على كونه كذباً وافتراءً والذين يظنون مع ذلك متشبثين بمفترياتهم ، فإنهم أناس معاندون ؛ سيُلقي بهم في نار جهنم . أما الذين رجعوا عما كانوا عليه من الكذب والافتراء واتبعوا الحق ، فأولئك هم المتقون الخائفون من الله ، وسيمحو الله سيئاتهم من صحائف أعمالهم ، ويتلقاهم بالحفاوة والتقدير بناء على صالح أعمالهم !

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ وَتُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ ۚ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۚ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۚ ﴾

كان رسول الله - ﷺ - داعي التوحيد ، ولكن أسلوب دعوته لم يكن هو الاكتفاء بهذا الإعلان الإيجابي القائل : " الله واحد " ، بل كان يكشف - إلى جانب ذلك - عن بطلان تلك الذوات غير الإلهية التي كان الناس قد اتخذوها آلهةً تُعبد من تلقاء أنفسهم وهذا الجزء الثاني من دعوته - عليه الصلاة والسلام - هو الذي صار عند الناس أمراً لا يُستساغ ولا يُحتمل .

وهذه الذوات غير الإلهية كانت في الأصل أكابرهم القوميين ، وقد مضت قرون ، وهم لم ينفكوا يستمعون إلى قصص كراماتهم المبالغ فيها ، حتى استولت عظمتهم على نفوسهم لدرجة أن رسول الله - ﷺ - لما ردّ على قدسيّتهم تعذر على أفهامهم كيف يمكن أن يكون أولئك غير متصفين بالقدسية ؟ ومن ثم هددوه قائلين : لتكفن عن شتم آلهتنا ، أو ليصينك منهم خبل أو جنون !!

على أن داعي الحق مأمور بالألا يكثرث لمثل هذه المزاعم والأقاويل السخيفة ، وإنما عليه أن يواصل عمله معتمداً على الله وحده ؛ إذ بدون ذلك لا يمكن أن يتجلى أمر الحق .

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ۚ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝﴾ قُلْ يَنْقُورُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّخْزٍ بِهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۖ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝﴾

أَفَرَأَيْتُمْ : أخبروني .

حَسْبِيَ اللَّهُ : كافي في جميع أموري .

مَكَانَتِكُمْ : حالتكم المتمكنين منها .

يُخْزِيهِ : يذله ويهينه .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ : يجب عليه .

ما زال الإنسان يعبد غير الله على اختلاف الزمان والمكان ، ولكن أحداً من الناس لا يجترئ - مع ذلك - على القول بأن آلهته المفضلة هي التي قامت بخلق السموات والأرض ، أو أنها تمتلك أزمة الأسباب الحقيقية لإيجاد أحوال الراحة والألم والسعادة والشقاء ، وعجيب اقتناع الناس هذا الذي يجعلهم لا يرضون بالتخلي عن معبوداتهم الباطلة .

وإن الداعي لا يسعه ، إذا لم تعد أدلته وبراهينه تؤثر في المدعو وتحرك منه ساكناً ، لا يسعه حينئذ إلا أن يقول: افعلوا ما شئتم فإذا جاء يوم القضاء الأخير ، فسيعلم الجميع مَنْ كان على حقٍّ ممن كان على غير الحق . وهذا إظهار لليقين بعد إقامة الدليل

والبرهان، وتلك هي الكلمة الأخيرة تنطلق من لسان الداعي دوماً؛ إذ يكون قد استنفد كل طاقاته، وعاد لا يملك إلا نفسه !!

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥١)

يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ : يقبضها عن الأبدان .

يطراً على المرء في أثناء النوم حالة الذهول واللا وعي ، فالنوم بهذا الاعتبار أشبه ما يكون بالموت ، وعندما يستيقظ المرء من نومه يعود إلى حالة الوعي والشعور مرة أخرى ، وكأنها هذا يمثل البعث بعد الموت .

وفي ضوء هذه الظاهرة الطبيعية يتم تبصير كل امرئ ، على مستوى بدائي محدود ، كيف أنه سيموت يوماً ، وكيف سيُعاد حياً من جديد . ولو تأمل المرء بجديّة لوجد في هذه الواقعة الدنيوية درساً لآخرته !!

﴿أَمْ أَلْأَخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٥٢) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۚ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٣) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۚ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٥٤) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٥) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٥٦) وَبَدَا لَهُمْ

سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

الله الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً : لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه .

اشْمَأَزَّتْ : نفرت وانقبضت عن التوحيد .

فَاطِرَ : يا مبدع ومخترع .

يَحْتَسِبُونَ : يظنونه ويوقعونه .

وَحَاقَ بِهِمْ : نزل أو أحاط بهم .

الذين كان مشركو الجزيرة العربية يعتقدون أنهم سيكونون لهم عند الله شفعاء ، لم يكونوا في الحقيقة أصناماً من الحجر ، وإنما كانوا أسلافهم الكبار الذين اتخذوا لهم أصناماً وتمائيل من الحجر بمثابة رموز أو علامات ، إن شفعاءهم كانوا أصلاً أكابرهم القوميين ، أحاطوهم بهالة من القدسية جعلتهم يظنون أن التمسك بأهدابهم سيكون كافياً لهم عند الله عز وجل !!

والذين يعتقدون في غير الله اعتقاداً كهذا ، يصل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى حد ترتبط معه كل عواطفهم السامية من الحب والخضوع والاحترام والإجلال بتلك الشخصيات غير الإلهية ، وبالتالي فإنهم يفرحون أشد الفرح إذا ذكرت محاسن تلك الشخصيات ، ولكن أرواحهم لا تجد لذة ولا متعة فيما إذا ذكرت كبرياء الله الواحد الأحد !

وأمثال هؤلاء لن يؤمنوا بالتوحيد الخاص ، مهما أقيم عليه من الدلائل القوية والبراهين الساطعة ، ولن تفتح عيونهم إلا إذا انكشفت القيامة عن جلال الله وجبروته .. وحال المرء اليوم أنه لا يكاد يستعد حتى بكلمة اعترافٍ واحدة ، أما يومئذ فإنه سيقدم كل ما عنده فداءً لنفسه من عقاب ذلك اليوم العصيب ، ولكن لن



يغني عن المرء هناك شيء سوى أعماله الصالحة!

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَاَنَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠١﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٠٢﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً : أعطيناه إياه تفضلاً وإحساناً .

هِيَ فِتْنَةٌ : تلك النعمة امتحان وابتلاء .

بِمُعْجِزِينَ : بفائتين من العذاب .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء بحكمته .

عندما يحصل المرء على شيء في هذه الدنيا يفرح باعتباره نتيجة مؤهلاته هو ، على حين أن أشياء الدنيا هي متاع اختبار وليست جزاء مؤهلات ، وإدراك هذه الحقيقة هو العلم الأكبر .

إن سعة رزق الدنيا أو ضيقه كلاهما خارج عن حدود الاختيار الإنساني ، حيث يبدو أن هناك قوة فوق الإنسان هي التي تقرر من يوسع عليه في الرزق ومن لا يُرزق إلا بقدر يسير .

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

أَسْرَفُوا : تجاوزوا الحد في المعاصي .

لَا تَقْنَطُوا : لا تيأسوا .

الذُّنُوبَ جَمِيعاً : إلا الشرك .

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

وَأَسْلِمُوا لَهُ : أخلصوا له عبادتكم .

إن ذوي القلوب المرهفة الحس حين يوفقون إلى معرفة الله - سبحانه وتعالى - يظل يؤرقهم ويقض عليهم مضاجعهم سؤال مؤداه : ما بال تلك الذنوب التي سبق وأن اقترفناها في ماضي حياتنا؟ فحسهم المرهف قد يجعلهم نهياً للقلق والاضطراب وعدم الاستقرار النفسي ، حتى إن هذا الإحساس يصل ببعضهم أحياناً إلى حد اليأس والقنوط !

ولأمثال هؤلاء أعلن الله في كتابه أنه يجب عليهم أن يتأكدوا من أن أمرهم مع إليه هو الغفور الرحيم ، والذي لا ينظر إلى ماضي المرء وإنما ينظر إلى حاضره ، ولا ينظر إلى ظاهره بل إلى باطنه ، وأنه يعامل المرء معاملةً سمحةً ، وليس معاملةً شحيحةً نكدةً . وللسبب ذاته فإن المرء إذا ما رجع إليه تعالى وأتاب ، أخذه في كنف رحمته من جديد ، مهما عظمت وكثرت ذنوبه التي صدرت منه فيما سلف !

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَنْحَسِرُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَيَوْمَ  
الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى  
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٥١﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ ﴿٥٢﴾

بَغْتَةً : فجأة .

يَا حَسْرَتَى : يا ندامتي ويا حزني .

فَرَطْتُ : قصرت .

فِي جَنْبِ اللَّهِ : في طاعته وأمره وحقه تعالى .

السَّاحِرِينَ : المستهزئين بدينه وكتابه وأهله .

كَرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ : مأوى ومقام لهم .

بِمَفَازَتِهِمْ : بفوزهم وظفرهم بالجنة .

إن كلام الله لا ينقسم إلى أحسن وغير الأحسن ، ولم يأت القرآن بدوره مشتملاً على  
آيات بعضها أحسن وبعضها غير الأحسن ، وليس هناك فرق بين القرآن وبين الكتب  
السماوية الأخرى من حيث إن بعضها أحسن جوهرًا وحقيقةً وبعضها ليس كذلك .

والأصل أن المرء في عالم الامتحان الراهن قد مُنحت له حرية الاختيار والعمل ،  
فبإمكانه هنا أن يأخذ أحد الأقوال مأخذاً مستقيماً أو مأخذاً ملتوياً معكوساً ، وأن يوجه  
اهتمامه - إن شاء - نحو المراد الحقيقي من الكلام أو يفعله فيه المطاعن ويحمله من  
المعاني المغلوطة ما لا يحتمل ، وإن الاستهزاء بالكلام الإلهي هو من أمثلة هذا الباب ،

حيث يلوي المرء أعناق بعض الآيات ويستخرج منها مفهوماً عكسياً ، ثم يأخذ يسخر منها بناءً على فهمه المزعوم ذاك !

وإن المرء ليخفي حقيقته في هذه الدنيا ؛ إذ هو ينكر الحق بدافع التكبر وحده ، ولكنه يتشدد بالفاظٍ كما لو أنه ينكره على أساسٍ مبدئي ، وفي يوم القيامة سيعود وجه المرء ناطقاً بحالته الداخلية ، فسوف يشهد وجهه يومئذٍ بأن الجوانب " غير الأحسن " التي جعل منها مبرراً لإنكاره الحق ، إنما كانت ألفاظه الكاذبة الملفقة ، وإلا فقد كان الحق في ذاته صافياً نقياً من كل شائبة ، واضحاً تمام الوضوح ، وعندها سيذوب المرء أسفاً وحسرةً على تفريطه في جنب الله ، إلا أن أسفه حينئذٍ لن يغني عنه فتيلاً !

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُقَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ۝ ﴾  
لَهُ مَقَالِيدُ : مفاتيح وخزائن .

لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ : ليبطلن عملك ويفسد .

إن وجود الكون دليل على وجود خالقه ، وهكذا فإن سير الكون على هذا النحو الدقيق المنظم ، وبهذا الأسلوب الهادف الحكيم مما يثبت أن هناك مراقباً لا يزال يراقبه ويرصد حركته كل حينٍ وأن ، ولو تأمل المرء بجدية لوجد في الكون آية خالقه وآية منظمه ومدير شئونه كذلك .

وفي مثل هذه الحالة فإن الذين يتوجهون إلى ذوات أخرى دون الله بالعبادة والتعظيم ، إنما يعملون عملاً لا قيمة له في كوننا الحالي ، لأنه إذا كان الخالق والوكيل

واحداً ليس غير ، فإن عبادته وحدها ستنتفع المرء ، أما عبادة أحدٍ سواه فهي بمثابة توجيه النداء إلى آلهة لا وجود لها إطلاقاً !! .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٢١] وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ [٢٢] وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [٢٣] وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٢٤]

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ : ما عرفوه ، أو ما عظموه .

قَبْضَتُهُ : ملكه وفي مقدوره وتصرفه .

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ : بقدرته كطي السجل للكتب .

الصُّورِ : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل .

فَصَعِقَ : مات ، وهي النفخة الأولى .

وَوُضِعَ الْكِتَابُ : أعطيت صحف الأعمال لأربابها .

إن إساءة تقدير الله أو بخس قدره هو المصدر الرئيسي لمعظم الضلالات والانحرافات ؛ فالمرء إنما تستبد بعقله مظاهر العظمة الأخرى لكونه لا يدري عظمة الله اللانهائية ، وهو إذ يظن الارتباط بأكابرهِ وسيلةً للنجاة ، فإنما يبعثه على هذا الظن جهله بأن الله أكبر بكثير من أن يجترأ أحد عنده على تحريك لسانه بدون إذنٍ منه ، والقيامة حين تزيل عن أبصار الناس الغشاوة ، فسيذكر كون أن الله سبحانه كان عظيماً

وجليل الشأن ، وأن الأرض في قبضته كعملية صغيرة ، والسماء مطوية بيمينه كالورق العادي !

وكما يدق الجرس في قاعة الامتحان إيذاناً بانتهاء فترة الامتحان المحددة ، فكذلك سوف يُنفخ في الصور عند انقضاء أجل عالمنا الراهن ، وبعدئذٍ سيتغير النظام الكوني بأكمله ، ويظهر إلى الوجود عالم جديد ، وإن عالمنا الراهن يستنير بضوء الشمس الذي لا يمكننا إلا من رؤية الأشياء المادية وحدها . أما عالم الآخرة فإن سيستضيء بنور الله تعالى مباشرة ، ومن ثم فسيمكن هناك أن نرى الحقائق المعنوية المجردة هي الأخرى رأي العين .. وسيحضر الجميع يومئذٍ أمام محكمة الله . ولقد كان الأنبياء والدعاة السائرون على هداهم قبلوا من جهة غالبية البشر في هذه الدنيا بالاحتقار وعدم الاكتراث ، ولكن الناس في الآخرة سوف لا يلبثون أن يملكهم دهشة ووجوم إذ يرون أن مصائر العباد إنما يتم تقريرها هناك على أساس مَنْ وقف إلى جانبهم مؤمناً بما جاءوا به ، وَمَنْ تلقاهم بالإنكار والتكذيب !

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۖ ﴾

زُمَرًا : جماعات متفرقة متتابعة .

حَقَّتْ : وجبت وثبتت .

للإعراض عن الحق وإنكاره درجات ، وبحسبها تتفاوت درجات أصحاب جهنم كذلك ، وسوف يقسم هؤلاء في الآخرة إلى جماعاتٍ شتى على حسب درجاتهم ، ثم

يُقذف بكل جماعة إلى الدرك الذي تستحقه من دركات الجحيم ، وكم سيكون المشهد فظيعاً ومخزياً يوم يُوجه إلى جهنم أصحابها ، ويمكننا أن نتخيل ذلك بوضوح من خلال الحوار الذي يجري ساعتئذٍ بينهم وبين الملائكة الموكلين بحراسة جهنم .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۚ ﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۚ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ ﴾

طِبْتُمْ : طهرتم من دنس المعاصي .

صَدَقْنَا وَعْدَهُ : أنجزنا ما وعدنا من النعيم .

نَتَبَوَّأُ : ننزل .

حَافِينَ : محققين محيطين .

وأهل الجنة هم الذين تتوافر فيهم صفة التقوى ، وإذ يدرك المرء كبرياء الله على نحو يقضي على شعوره بكبرياء ذاته ، يترتب على ذلك - بطبيعة الحال - أن يمتلئ فؤاده بالخشية الإلهية ، وإحساسه بمدى عجزه - من ناحية - وبعظيم قدرة الله - من ناحية أخرى - يجعله شديد الحذر والاحتياط في أمر الله ، وهو لا يزال كل الوقت في حالة قلق وتخوف دائم مما عسى أن يعامله به ربه في الآخرة ، والذين خافوا من الله في الحياة الدنيا هذا الخوف ، هم الذين سيعتبرون من ورثة الحياة الخالية من كل المخاوف والهموم في الآخرة !

وسيُعامل أهل الجنة في الآخرة معاملة الضيوف الوافدة على الملوك ، حيث سيذهب بهم إلى دور إقامتهم بغاية التوقير والإكرام ، وسوف لا يلبثون أن تفيض على ألسنتهم كلمات الشكر والحمد والثناء تلقائياً إذا رأوا الجنة بعيونهم ، ولن تُعدّ لهم في الجنة مساكن عالية مريحة فحسب ، بل ولن يكون هناك حظر ما على التجول والاجتماع وتبادل الزيارات فيما بينهم ، كما ستوفر لهم كل وسائل السفر والمواصلات من أرفع طرازٍ وبكمية هائلة لا تُقدر .

إن المستحق للحمد والثناء هو ذات الله الواحد الأحد ليس غير ، ولكن هذه الحقيقة لا تتجلى في عالم الامتحان الراهن ، وستكون الآخرة يوم ظهور الحمد الإلهي في أكمل صورهِ ، فيومئذٍ ستصدق جميع الألسنة ، متجاوبةً معها سائر الموجودات بنغمات الحمد الإلهي ، وستنهار كل الأبعاد الزائفة ومظاهر العظمة الكاذبة ، ولن تكون هناك سوى ذاتٍ واحدةٍ يتوجه إليها المرء بالدعاء والتمجيد ، وسوى كبرياء ذي الجلال الواحد يسبح بحمده ويشني عليه غارقاً في خضم كبريائه وجبروته اللامتناهي !!